YEMEN ENGINEER
Faculty of Engineering-University of Aden

المجلد 5 العدد 1(2005) 55-68

6 تطور العمارة اليمنية القديمة في مملكة سبأ

أحمد إبراهيم بن إبراهيم حنشور* أحمد بن أحمد باطايع* فيصل شمشير**

الملخص

تميزت العمارة اليمنية القديمة بتنوع أنماط العمارة وتعددها، فقد أستخدم البناءون القدماء مواد البناء المختلفة المتوفرة في البيئة المحيطة وشيدوا القصور والمعابد والمباني الشاهقة.

قبل سنوات قليلة كانت معرفتنا بالحضارة اليمنية القديمة ما قبل التاريخ وبداية العصور التاريخية محدودة جداً وتكاد تكون محصورة في بعض القطع التي وجدت في حضرموت وبعض الأدوات الحجرية التي وجدت قرب مدينة صنعاء . وبدءاً من عام 1981م تم اكتشاف مدن كاملة تعود إلى العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي ، هذه المعلومات أدت إلى سد الثغرات التي كانت موجودة في التاريخ اليمني القديم وعملت على تكوين فكرة أولية عن البدايات الأولى لنشوء العمارة اليمنية القديمة وتطورها بدءاً من التجمعات السكنية في العصر الحجري الحديث وصولاً إلى بناء المدينة الحضارية في عصر الممالك اليمنية القديمة.

يتناول هذا البحث تتبع نشوء العمارة اليمنية القديمة وذلك من خلال دراسة مملكة من أهم ممالك اليمن القديم وهي مملكة سبأ، مستعرضا بذلك نشوء المدن واختلاف أنماط عمارتها.

كلمات مفتاحيه: سبأ، عمارة يمنية قديمة، مستوطنات، مدن

Abstract

The Yemeni architecture specified with different architectural styles and the Yemeni Builders utilized the available building materials in their environment to construct great and high buildings.

Before few years, our knowledge about the prehistory and protohistory of Yemen was limited to a few Palaeolithic pieces found in Hadramawt and Lithic tools found near Sana'a, but from 1981 the plane of the development of South Arabia Civilization began clearly by discovering villages from the Neolithic, Bronze and Iron age. These discoveries full fill the missing link in South Arabia history. The archeological missions which worked in the Yemeni ancient cities were discovered a numerous architectural styles and patterns, most of their founders pointed that the construction of buildings erected by the surrounded materials available in local environment.

The present study follow the rising of ancient Yemen architecture through considering the old Yemeni kingdom " Sheba" ascended as a political kingdom in the first millennium B.C. and fashioned the basis of the rising of cities with different architectural styles.

* .كلية التربية –جامعة عدن - اليمن
** كلية الهندسة – جامعة عدن - اليمن

المُقَدِّمَة

بدأ في العشرين السنة الأخيرة التعرف وبشكل جيد على الحضارة اليمنية القديمة وممالكها وعماراتها المشيدة من الحجارة، وعلى روعة نقوشها وعظمة إتقانها لأعمال الري (قنوات وسدود) من خلال الدراسات التي قامت بها البعثات العلمية الأثرية العاملة في الأراضي اليمنية ومن خلال الجيل الجديد من أبناءها الذين حملوا على عاتقهم ضرورة نشر تراثهم وتوصيله إلى الآخرين، وأخذت حضارة جنوب شبه الجزيرة العربية مكانها بين حضارات الشرق القديم الكبرى بعد أن أهملت لفترة طويلة.

من خلال بحثنا هذا وجد أن هناك فرضيات مختلفة تواجه الباحث في تاريخ العمارة اليمنية القديمة عند البدء في عمله البحثي ومنها:

1. عدم وجود حضارة يمنية قديمة وأن الشعوب التي سكنت في اليمن ظلت جاهلة حتى نزوح جماعات بشرية من إفريقيا إلى اليمن في العصر الحجري الوسيط وإقامة أول المستوطنات البشرية في اليمن.
2. إن العمارة التي وجدت في مدن عصر الممالك اليمنية القديمة ما هي إلا نتاج شعوب انتقلت من شمال الجزيرة العربية (الأطراف الشمالية لبلاد الهلال الخصيب) وبنت هذه الحضارة.

وقد ناقش ذلك عدد من الباحثين اليمنيين منهم [محمد عبدالقادر بافقيه، 1985 و يوسف محمد عبدالله، 1990 وأسمهان الجرو، 1996] وغيرهم ونفوها بطريقة علمية.

والأمر الآخر يتعلق بندرة المعلومات الخاصة بعمارة المدن في الممالك اليمنية القديمة وذلك نتيجة التقصير في الدراسات والاستكشافات الأثرية التي تركزت على المناطق الحضرية المكتشفة واكتفت بها ولم تبذل الجهود اللازمة لتحقيق اكتشاف أصول الحضارة اليمنية القديمة، وساعدها على ذلك عدم قدرة الجهات المختصة في اليمن على الإنفاق في هذا المجال إلى الانتظار طويلاً، إلا أنه في العشرين سنة الأخيرة، قد تم من خلال بعض البعثات العلمية العاملة في المجال الأثري وأهمها البعثة الأثرية الإيطالية التابعة لمعهد دراسات الشرق الأوسط والشرق الأدنى (أسيميو) والبعثات الأمريكية في ذمار وحضرموت والمهره والبعثة الفرنسية في شبوه وحضرموت الحصول على معلومات مؤكدة حول العمارة في العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي والعثور على مدن كاملة تعود إلى تلك الفترات، هذه المعلومات أدت إلى سد الثغرات التي كانت موجودة في التاريخ اليمني القديم وعملت على تكوين فكرة أولية عن البدايات الأولى لنشوء العمارة اليمنية القديمة وتطورها بدءاً من التجمعات السكنية في العصر الحجري الحديث وصولاً إلى بناء المدينة الحضارية في عصر الممالك اليمنية القديمة.

يتناول هذا البحث تتبع نشوء العمارة اليمنية القديمة في مملكة من أهم ممالك اليمن القديم وهي مملكة سبأ، حيث يمكن من خلال المعلومات التي تم جمعها الوصول إلى إجابة مقنعة لتلك الأسئلة.

1- مملكة سبأ

تعتبر مملكة سبأ من أهم الممالك في اليمن القديم ، حيث حظيت بشهرة واسعة لم تتوفر لغيرها، واستمرت من أواسط القرن الثامن قبل الميلاد إلى 525ميلادية مع الغزو الحبشي لليمن. تمركزت الدولة السبئية في شمال الهضبة الغربية لليمن، ومن الصعب رسم حدوداً سياسية دائمة لدولة سبأ، ففي فترات قوتها في القرن السابع قبل الميلاد توسعت لتشمل مناطق واسعة وضمت كل المرتفعات وامتدت شمالاً حتى الجوف، ولكن في فترة ضعفها لا يبعد اتساعها أكثر من المناطق الشمالية للهضبة الغربية[اسمهان الجرو، 1996].

وسوف نتناول بالدراسة والتحليل أنماط وتنوع العمارة في هذه المملكة حيث سنقوم باعطاء لمحة عن البدايات الأولى لنشوء العمارة اليمنية القديمة في عصور ما قبل التاريخ، ثم سنتناول بالدراسة عمارة العصور التاريخية في مستوطنات منطقة خولان التي تعود إلى النصف الثاني من الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد والتي نعتقد أنها البدايات الأولى للعمارة المميزة للمملكة، ثم سنقوم بدراسة العمارة في أهم مدن المملكة وهي مدينة مارب، ثم دراسة معبد بران وذلك لكونه يمثل نموذجاً للعمارة الدينية تم التنقيب فيه ودراسة طبقاته ومراحله الإنشائية وتتابع فيه الاستيطان لفترات متلاحقة.

2- البيئة الطبيعية لليمن

إن التكوين الجيولوجي لليمن هو عبارة عن صخور بلورية قديمة وصخور متحولة ونارية وطفوح بركانية ورواسب بازلتية ظهرت بعد انفصال شبة الجزيرة العربية عن إفريقيا قبل أكثر من خمسة عشر مليون سنة، شهدت بعدها تطورات بيئية مختلفة. وفي نهاية عصر البلايستوسين عانت الجزيرة العربية من مناخ جاف بين (18000 – 8000 سنة قبل الميلاد) و أعقبتها مرحلة رطبة تقع بين (8000 – 5500 سنة قبل الميلاد) [أسمهان الجرو، 1996]. وهذا يدل على أن مناخ المنطقة كان خلال العصر الحجري الحديث وبداية العصر البرونزي مناخاً حاراً رطباً ملائماً للاستيطان البشري – الفترة التي ظهر فيها بداية الاستيطان الدائم – إلا أنه بعد ذلك بدأ يميل تدريجياً نحو الجفاف، فزادت مساحة الأراضي المتصحرة بعد أن جفت مياه الوديان فيها وتكونت الكثبان الرملية خصوصاً في أطراف الأجزاء الغربية والجنوبية للربع الخالي والمناطق الساحلية، وتحولت هذه المناطق إلى مناطق طرد للسكان بعد أن كانت ملائمة للعيش تسكنها أعداد كبيرة من مجتمعات العصر الحجري الحديث، بينما ظلت معظم مناطق المرتفعات الجبلية تعيش أوضاعاً مناخية رطبة ملائمة لاستمرار استيطان الإنسان فيها[قسطنطيني، لورينزو، 1990]

وقد بينت قراءة صور الأقمار الاصطناعية والصور الجوية أنه خلال المرحلة الرطبة كان واديا الجوف وحضرموت يؤلفان نهراً واحداً منبعه في الجبال الواقعة في الشمال الغربي يتغذى من مياه الأمطار التي تتجمع في أعالي الوديان حتى تصل إلى وادي الجوف، وتمتلك من قوة الدفع ما يمكنها من اجتياز المنطقة الرملية المعروفة برملة السبعتين ومتابعة سيرها جنوباً وصولاً إلى المحيط الهندي[شكل رقم (1)]. وقد تم العثور على بحيرة جافة غرب العبر تنطوي على حالتين من الامتلاء بالمياه تعود أولاهما – وهي الأوسع والأعمق – إلى الحقبة الرطبة السابقة على عشرين ألف سنة، أما الحالة الثانية – وهي الأقل اتساعاً – فتعود إلى 8000 إلى 5000 سنة وتتميز بوجود رواسب مختلفة مثل التي وجدت في مواقع العصر الحجري الحديث من رحى للطحن وبلطات مصقولة ورؤوس نبال وزينة من القواقع وبيض النعام[اينيزان، ماري – لويزا،1999].

ومن هنا يتضح أن اليمن كان يملك الشروط الملائمة للاستيطان البشري وقد أكدت ذلك الأبحاث الأثرية، حيث تم الكشف عن العديد من المواقع التي يعود تاريخها إلى فترة العصر الحجري الحديث وذلك من خلال التحليل الراديو كاربوني الذي أُجري في عدد منها، حيث وجد أن هذا العصر في اليمن أستمر من الألف السابع إلى الألف الرابع قبل الميلاد [Tosi,1986]

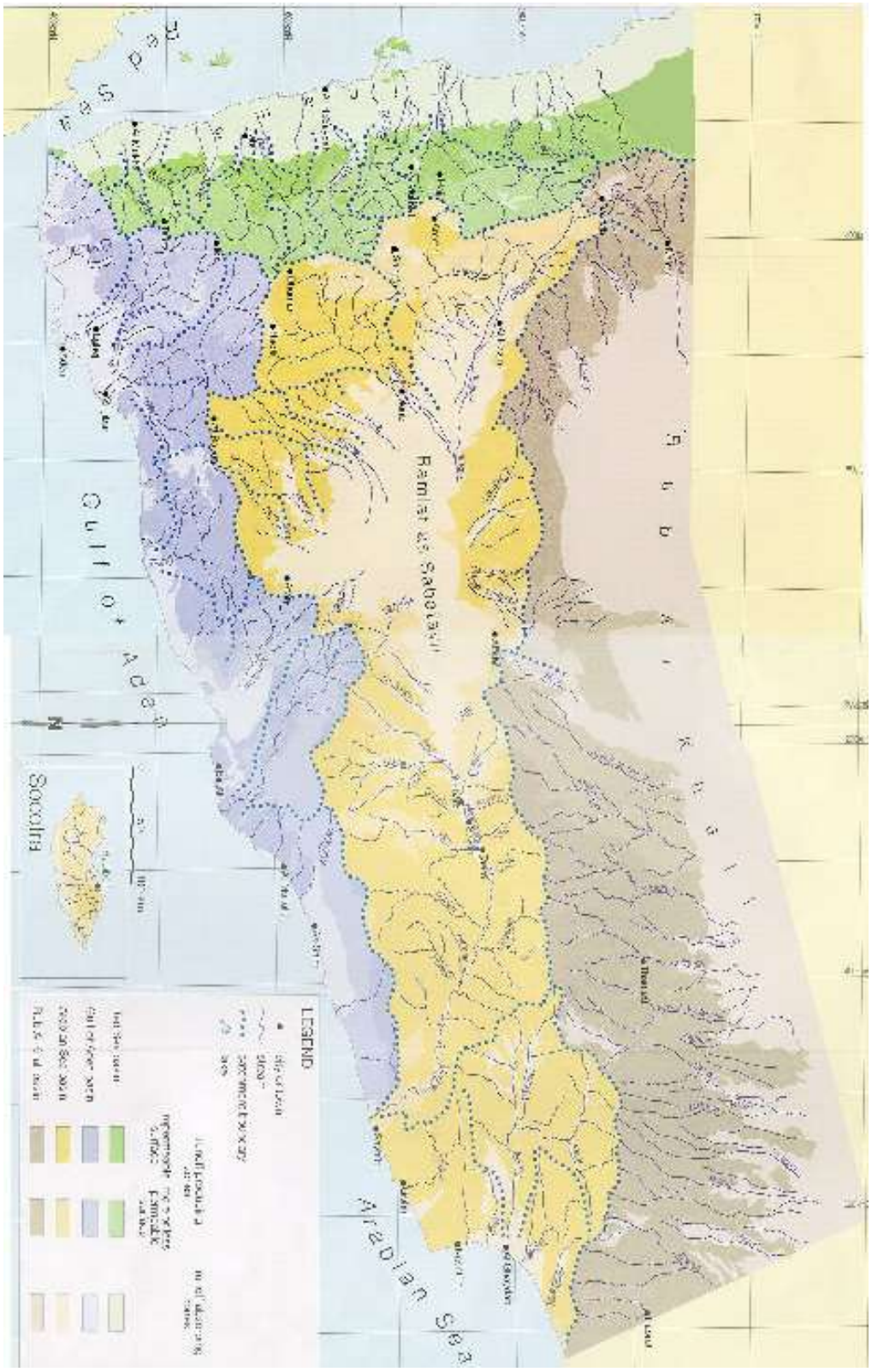

شكل (1): خريطة توضح وديان اليمن وروافدها

3- البدايات الأولى لنشوء العمارة اليمنية القديمة في عصور ما قبل التاريخ

إذا تتبعنا تطور الوجود الإنساني للتجمعات السكنية في منطقة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، نجد أن التجمعات الأولى قد نشأت في العصر الحجري الحديث بفعل ظروف مناخية معينة تمثلت في زيادة رطوبة الرياح الموسمية [ايدينز، كريستوفر و ويلكنسون، 2001]، ونتيجة لهذه التجمعات ظهرت أول أشكال العمارة في اليمن القديم من الألف السادس إلى الألف الثالث قبل الميلاد، حيث اعتمد الإنسان القديم في بناء مسكنه على البيئة المحيطة به واستخدم المواد الأولية المتوفرة في المنطقة التي يتواجد فيها لبناء تلك المساكن. وقد اكتشفت بقايا المنشآت في مناطق النجد الأبيض ووادي الطياله ومنطقة قاع جهران ووادي الفارهة ومتاش ونجد جبر في وادي الجوبة وخربة الجبر وخربة السد في منطقة البيضاء ومنطقة وادي ضهر بالقرب من صنعاء وموقع السبال وموقع البليد شرق ذمار التي استخدمت الحجارة في بناء أسس المساكن.

أن المستوطنات المستقرة التي نشأت في العصر الحجري الحديث ومنها مستوطنات وادي يناعم والنجد الأبيض والرقله [ديمجرية، أليساندرو، 1990] ، تتكون من وحدات تخطيطية دائرية الشكل تشير إلى تجزئة المجتمع في مجموعات أسرية مستقلة، تشكل كل أسرة مستوطنة منفصلة خاصة بها كما في (مستوطنة النجد الأبيض 5 ومستوطنة النجد الأبيض7)، أي إن التجمعات الصغيرة كانت قائمة على مستوى الأسرة فقط.

ووجدت مستوطنات أخرى تظهر تخطيطاً تنظيمياً أكثر تعقيدا ، وذا وحدات سكنية متعددة، تتألف الوحدة السكنية من (3 – 4 منازل) نظمت حول ساحة مركزية مشتركة وجدت فيها آثار لمواقد وحفر طبخ وحجارة طحن، وغالباً يوجد في كل وحدة سكنية مسكناً بارزاً وظاهر التفوق عن المساكن الأخرى، من خلال بعض الملامح المميزة مثل الوضعية المهيمنه، مدخل بارز واضح المعالم وعدد أكبر من الملاحق والمساكن الإضافية، مثل مواقع (المسنة1، وادي يناعم1، وادي الطيال 5، الرقلة1)، مما يشير إلى تجمعات ذات مستوٍ عالٍ من التنظيم الاجتماعي، وذي وحدات أسرية مختلفة تعيش قرب بعضها البعض على الرغم من أنها لاتزال منتظمة في مواضع مستقلة[شكل رقم (2، 3)]

وقد بينت القياسات المساحية بأن شكل تلك المخططات السكنية هام جداً، حيث نظمت المساكن في شكل دائرة تشرف واجهاتها الأمامية على ساحة داخلية تستخدم للنشاطات المختلفة لساكني المستوطنة، بينما تشكل الجدران الخارجية للمساكن سور لحماية المستوطنة، وتعتبر هذه الطريقة أول أشكال التسوير التي عرفها الإنسان في جنوب غرب الجزيرة العربية قديماً. ولوحظ في عدد من هذه الوحدات بأن أجزاء معينه منها تبدو مشيرة إلى حدوث تغيير في النظام التخطيطي للوحدة السكنية ليتخذ شكلاً جديداً وفقاً لتصميم يفتح تلك الدوائر المغلقة ويشوه نظامها، متجهاً بكل وضوح نحو نوع من التكامل الوحدوي للمنطقة السكنية[ديمجرية، أليساندرو، 1990]

شكل (2) مخطط البناء لمستوطنة النجد الأبيض [de Maigret, 2002, p 139 : عن]

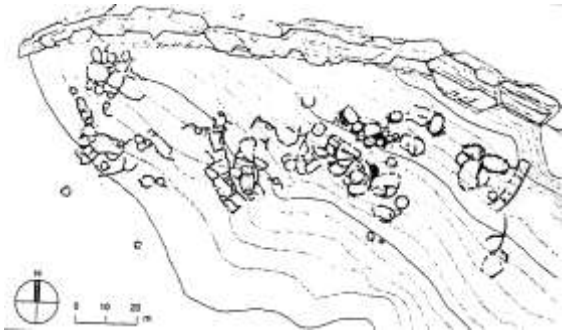

شكل (3) مخطط البناء لمستوطنة الركلة(RAQi) [de Maigret, 2002, p 140 : عن]

ونتيجة لتحول مناخي وبيئي في منطقة المرتفعات الشرقية ومنها منطقة خولان والحدا خلال أوائل الألف الثاني قبل الميلاد أدى بسكانها إلى تركها والنزوح إلى مناطق الهضاب في سهل قاع شرعة و قاع جهران حيث ساعد ذلك على زيادة عدد المستوطنات وكبر مساحتها التي أصبحت تشتمل على مجموعات واسعة من المساكن تغطي مساحة تصل إلى عشرة هكتارات أو أكثر ومنها المستوطنات التي وجدت حول مستوطنة عرن عمر(DS82) التي ظهرت أوائل الألف الأول قبل الميلاد وتوسعت على حساب المستوطنات الأخرى وازدادت أهميتها نتيجة لموقعها المتميز فازداد نموها بينما تقلصت عدد المستوطنات الصغيرة وتحول سكانها إلى المستوطنات المركزية الجديدة التي أصبحت تضم المعبد الرئيس للمنطقة وشكلت النواة الأولى للمدينة اليمنية القديمة[8]

4- عمارة العصور التاريخية في منطقة خولان

تشكل منطقة خولان الامتداد الطبيعي لمنطقة مارب عاصمة مملكة سبأ وتبعد عنها بحوالي 30 كيلومتر إلى الجنوب الشرقي، اكتشفت فيها البعثة الإيطالية عام 1981م ثلاث مجموعات إنشائية متميزة تعود للمرحلة السبئية القديمة شيدت على روافد وادي ذنه وهي شُعب العُقل والجفنه ويلا الدريب، وسوف نقوم بدراسة مدينة يلا الدريب التي تعتبر من أقدم المدن اليمنية القديمة.

أ- يلا الدريب:

تعد هذه المدينة من أقدم المدن السبئية المسورة، حيث يعود تاريخ أقدم بناء فيها إلى بداية الألف الأول قبل الميلاد[9]. كانت تسمى قديمًا بـ (حفري) وقد سورت من قبل (يدع إل) أحد مكربي سبأ[ديمجرية، أليساندرو وروبان، كريستيان، 1999]. وتقع على بعد واحد كيلومتر من الضفة اليمنى لوادي يلا الذي يعتبر أحد روافد وادي ذنه أسفل مجرى الوادي.

إن مخطط هذه المدينة يشبه إلى حد كبير مثلثين ذا أضلاع محذبة الرؤوس تشير إلى جهات الشرق والشمال والغرب والجنوب.أقيمت على أرض مرتفعة نسبيًا(7- 8متر) وسورت بسور حجري مازال معظمه باقيًا ومحافظًا على ارتفاعه الكلي . ويبلغ الطول الكلي للمدينة من الشمال إلى الجنوب 230مترًا وأقصى عرض لها من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي 170مترًا وتبلغ مساحتها الكلية 23000متر مربع [شكل رقم(4)]. ويلاحظ أن ثلثي المساحة المحاطة بالسور عبارة عن منطقة مرتفعة على شكل مستطيل مليئة بالخرائب والأطلال (المدينة العليا).وتشكل هذه المنطقة حوالي(16000متر مربع) الجز المساحة الكلية للمدينة، تاركة الأجزاء الشمالية والغربية مستقلا ويعتقد أن ارتفاع الجزء الجنوبي الشرقي (المدينة العليا) لم يك تتابع تراكم سويات الاستيطان للموقع والبناء على نفس الموقع وفي استعراضنا لهذه المدينة سوف نتناول بالدراسة كل من البناء في هذه المنطقة.

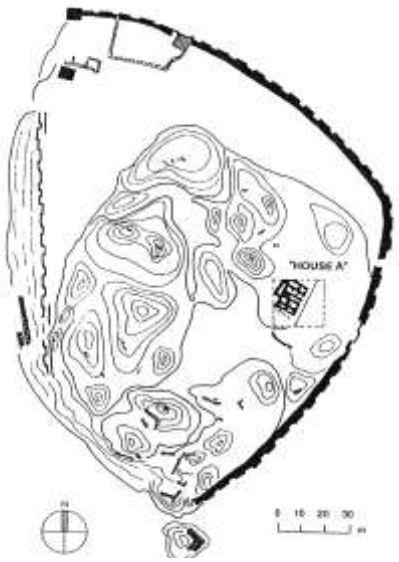

شكل (4) مخطط مدينة يلا/ الدريب [عن : de Maigret, 2002, P 174]

- سور المدينة:

يحيط بمدينة الدريب (يلا) القديمة سور حجري يبلغ طوله ((376متر) قائمًا ومحافظًا على وجوده [الصورة رقم (1)].

شيدت جدران السور باستخدام نظام الجدران الحجرية الجافة [البناء بالأحجار بدون استخدام المونه للربط بينها] من جدار مزدوج مشيد بأحجار مقطوعة بشكل خشن وغير مشذبة مصفوفة في صفوف أفقية داخلية وخارجية وحشوه بكسر الأحجار الصغيرة مع الرمل في الوسط – وضعت دون ترتيب – [الصورة رقم(2)]، ويتراوح ارتفاع السور من الخارج بين (6–7 أمتار) على شكل أجزاء بارزة وداخله من السور تتعاقب على مسافات بينية منتظمة (حوالي 6.50متر للأجزاء البارزة و4.50 متر للأجزاء الداخلة) مرتكزة على قاعدة مشتركة تبدو واضحة في المخطط عند موضع انقطاع المحيط. ومن قمة السور التي تصدعت وتهدمت إلى الجنوب مباشرة من الركن الشرقي يمكن مشاهدة أن حالة الحفاظ فيه تمتد إلى الأعلى حوالي (2.50متر) أعلى القاعدة من الخارج، ويتراوح عرض السور بين (1.6–1.2متر) وفقا لوجود أو غياب الأجزاء البارزة. وبالاتجاه نحو الحافة الخارجية يرتفع جدار رفيع سمكه (0.50متر) لا يمكن تمييزه من الخارج، وظيفته توفير ستر وقاية للإنسان ارتفاعه حوالي مترين وبالتالي فإن

صورة (1) : صورة للجدار الشمالي من سور مدينة يلا / الدريب
[عن ديمجر يت، 1988، لوحة (31a)]

صورة (2) : صورة لجزء داخلي مقتطع من الجدار الشرقي لسور مدينة يلا الدريب
[عن ديمجريت، 1988، لوحة (32b)]

الارتفاع الحقيقي للسور من القاعدة الخارجية يقارب (4.50 متر) إضافة إلى ارتفاع الجدار الرفيع وبذلك يصبح الارتفاع الكلي للجدار من الخارج (6.5 متر). وبالقياس من المنطقة الداخلية المحاطة بالسور فأن الارتفاع الحقيقي للسور يتراوح بين (1.2 – 1.5 متر) أقل من القياسات بالخارج، ويبين هذا أن السور قد شيد على الحافة الفعلية للسهل الواسع. ويعود هذا السور إلى العصر السبئي الأول (عصر المكربين) [ديمجرية، أليساندرو، 1988].

– المسكن (A)

يطل المسكن (A) على الساحة الرئيسية في الحي الشمالي (المدينة العليا) من المدينة القديمة ويتكون هيكل المسكن من قسم رئيسي مربع (طول ضلعه 8.5متر)،

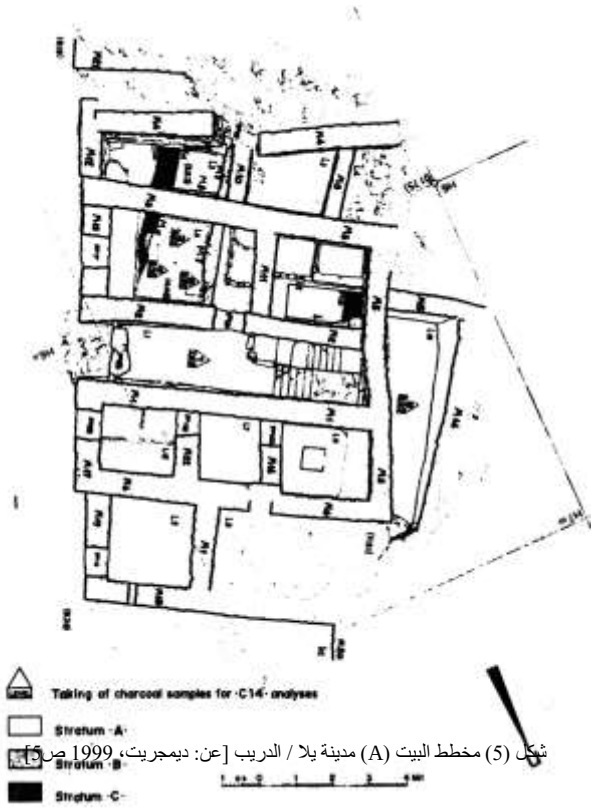

شكل (5) مخطط البيت (A) مدينة يلا / الدريب [عن: ديمجريت، 1999 ص15]

أضيفت إلية بعض الأقسام على الجانبين الشمالي والجنوبي[شكل رقم (5)].

تتجه الواجهة الرئيسية للمبنى نحو الشرق يتوسطها المدخل الذي يقسم المبنى إلى قسمين متناظرين جنوبي وشمالي، يفتح المسكن عبر بوابة عريضة ذات مصراعين – فتحت على جانبيها نافدتان – على صالة طويلة وضيقة (عرضها 1.6متر) تنتهي بسلم ذو اتجاهين يقود إلى الطابق العلوي ويوجد في الجزء الشمالي لجدار الصالة آثار لحفر وثقوب تدل على أنها كانت تحمل جسور سقف الطابق الأول[ديمجرية، أليساندرو وروبان، كريستيان، 1999]. وفي وسط الجدار الجنوبي للصالة يوجد باب محفور يقود إلى غرفة واسعة مستطيلة الشكل تحتوي في زاويتها الجنوبية الغربية على حوض مصنوع من بلاطات حجرية ربما كان يستخدم كمجمع للمياه. وهناك نافذة تطل على الشارع في الجهة الشرقية وأخرى ملاصقة لباب يصل هذه الغرفة بغرفة أخرى مجاورة لها. وتوجد غرفة صغيرة في الجهة الغربية، في زاويتها الغربية الجنوبية مجمع آخر للمياه مشيد من بلاطات من الجرانيت واللبن المجفف، وفي القسم العلوي من الدرجات الأولى والثانية في عمق الصالة يوجد باب يؤدي إلى غرفة غربية طويلة شبه مستطيلة.

الممر الوحيد الذي يصل بين المدخل والجناح الشمالي للمسكن عبارة عن باب مرتفع عن أرضية المدخل بشكل استثنائي حيث يصل الصالة بالمكان الذي تتصل فيه الغرفتان الشرقية والوسطى للجناح الشمالي وقد وضع كرسي خشبي في الموقع يستعمل للوصول إلى الممر المرتفع، ويرتبط مع قاعدة باب الغرفة الشرقية الذي يبلغ ارتفاعه حوالي متر عن أرض الغرفتين. ومن خلال الحفريات التي قامت بها البعثة الإيطالية في المسكن (A) عام 1987م ظهر على عمق عشرات السنتيمترات مساكن جديدة أكثر قدماً، لها نفس اتجاهات هياكل البناء العلوي، ولكنها تسجل تنظيماً مساحياً مختلفاً. وقد أظهر التحليل المعماري والطبقاتي بأن الجدران ترجع إلى عصرين مختلفين أحدهما أكثر حداثة وآخر أكثر قدماً تفصل بينهما مسافة خمسة أمتار تقريباً.

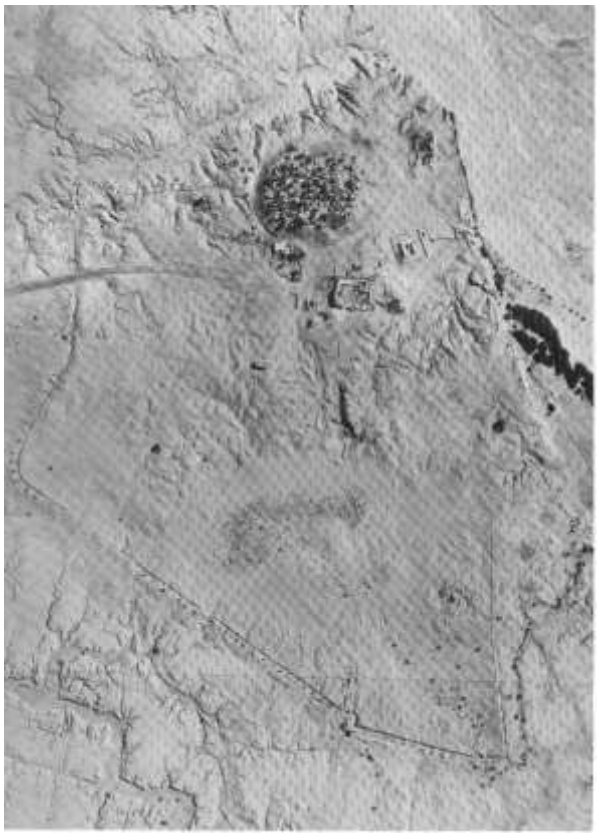

صورة رقم (3) : صورة جوية لمدينة مأرب توضح مسار السور [عن Breton, 1994, Planche 3]

ومن نتائج التحاليل المخبرية للكربون 14 (C14) وجد أن تاريخ الطبقة العليا من أساس المسكن (A) يعود إلى 535 قبل الميلاد فيما تعود الطبقة السفلى إلى 920 قبل الميلاد[ديمجرية، أليساندرو، 1990].

5- مدينة مارب:

تعتبر مدينة مارب من أشهر المدن اليمنية القديمة، وقد شيدت فوق تل على الضفة اليسرى لوادي (أذنه) في السهل السبئي على مشارف صحراء صيهد وتتحكم بطريق التجارة الهام المعروف بطريق اللبان والذي كان يمتد من ميناء قنا الواقع على ساحل بحر العرب الذي يفتح على المحيط الهندي عبر مدينة شبوه إلى نجران ومنها إلى ددان (العلا اليوم) ثم إلى غزة على ساحل البحر المتوسط.

أقدم ذكر للمدينة في النقوش اليمنية ورد في نقش (Gl 1719) والذي يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد [عبدالله، يوسف محمد، 1992]، كما ذكرت باسم (مريب) في النقش(CIH37)[بافقيه، محمد عبدالقادر، 1985] ويرد أيضاً باسم (مرب) كما جاء في النقشان(ارياني14،6)[الارياني، مطهر علي، 1990]، أصبحت منذُ منتصف القرن الثامن قبل الميلاد عاصمة لمملكة سبأ والمركز الثقافي والاقتصادي لجنوب الجزيرة العربية، وأكبر المدن وأكثرها سكاناً[عبدالله، يوسف محمد، 1990][الصورة رقم (3)].

يحيط بالمدينة سور على شكل شبه منحرف تقريباً ذو أركان مستديرة يلتف حول تل طبيعي، وتقدر مساحة التل بـ 110 هكتارات وهي مساحة المدينة بجميع مساكنها المختلفة كالمعابد والقصور والمساكن وأحياء الحرفيين وغير ذلك. ويمكن تقسيم المدينة القديمة إلى مجالات وظيفية.

وهناك بقايا معبد كبير يتكون من فناء واسع محاط سابقاً بأعمدة ويتكون مدخله من ثمانية أعمدة مما يجعله مركزا دينيا هاما في العاصمة السبئية، إضافة إلى أربعة معابد أخرى عرفت من خلال المخطط المميز لها والتي تتكون من منصة وبقايا من المدخل، ثلاثة منها وجدت في القسم الجنوبي الغربي للمدينة. وإلى جانب التل الرئيس يوجد تلان صغيران بالقرب من السور الجنوبي للمدينة، أزيل أحدهما في أربعينيات القرن العشرين ولم يتبق منه إلا بقايا قليلة من جدران الأساس، ووجد على التل الآخر آثار استيطان تعود إلى القرن العاشر إلى الثالث عشر الميلادي، ووجد أسفله جدران قديمة لمساكن سبئية ضخمه ويظهر المسقط الأفقي للتل على شكل مستطيل، وعلى الجهة الشديدة الانحدار من الناحية الشمالية لمسار التل يلاحظ سوراً مدرجاً عالياً مشيداً من أحجار كبيرة، ويحتمل أن هذا السور كان مزيناً بمكعبات من الأحجار الجيرية المشذبة ، التي كان يفضل استخدامها في تشييد المساكن الحديثة في المنطقة، وبالتالي أخذت من الموقع في فترة سابقة، كما لوحظ في أحد الأجزاء وجود بقايا من الأحجار الجيرية التي تدل جودتها العالية على فخامة وعظمة طابع البناء القديم ووجدت درجات محطمة تؤدي من الجهة الغربية إلى مجمع بنائي تحت الأرض مساحته (120×100 متر) وهذا يدل على فخامة البناء أيشمان، ريكاردو، 1978].

أ- سور المدينة:

يرجع تاريخ بنائه إلى نهاية القرن الثامن وبداية القرن السابع قبل الميلاد حيث تذكر النقوش إن (يثع أمر بيان أبن سمهو علي) بنى أول جدار في السور حوالي سنة (715 قبل الميلاد)، كما ذكر في النقش(فخري 45= RES 3943 = 419 – 418 GL) أن (كرب إيل وتر) أقام سوراً حول مدينة مارب وزوده بالبوابات والأبراج[فخري، أحمد, 1988] .

يبلغ طول السور 4.5 كيلومتر وتتراوح سماكته بين 7 إلى 14 متر تقريبا وتتوزع على السور أبراج دفاعية بمسافات منتظمة، وله ثمان بوابات غير منتظمة التوزيع تتيح الدخول إلى المدينة من مختلف الجهات. ويظهر السور في الجهة الجنوبية متوازياً ومتوافقاً مع المجرى القديم للوادي ، أما في الشرق فيأخذ شكلاً منحنياً ليحيط بالجزء الأكثر ارتفاعاً للمدينة[أيشمان، ريكاردو, 1978].

شيد السور في فترات متعاقبة ويظهر ذلك من خلال عدم تناسق وانتظام البناء الذي يمكن ملاحظته بجلاء في بناء الوحدات الأفقية والرأسية للسور، كما يمكن تأكيد ذلك من خلال مواد البناء المختلفة.

ولقد أمكن تمييز خمسة أطوار وأنماط معمارية كبرى – إن لم يكن خمسة جدران متلاصقة – يعود أقدمها إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد.إضافة إلى ما ذكرته النقوش السبئية التي تشير إلى طول مراحل فترة أعمال البناء في تحصينات المدينة بين القرن الثامن قبل الميلاد والثالث الميلادي[عبدالله، يوسف محمد، 1990].

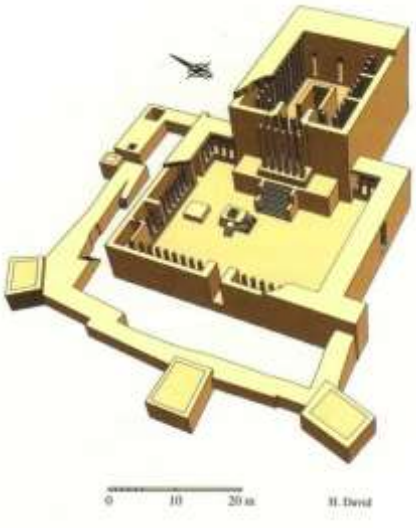

شكل (6) : مخطط معبد برآن[عن فوكت، 1999، ص140]

ب– معبد الإله المقه (برآن) بمارب :

يقع معبد المقه (برآن) أو معبد (عرش بلقيس) كما يطلق عليه محليًا، على الضفة الجنوبية لوادي دنه على بعد (3 كيلومتر) إلى الجنوب الغربي من مدينة مارب، وهو أحد أهم معابد مملكة سبأ، حيث تمت دراسته دراسة منهجية من قبل البعثة الألمانية التابعة لمعهد الآثار الألماني، وقد عثر على أسم المعبد (برآن) منقوشًا على أحد أعمدته،[18] [أنظر شكل رقم(6)].

مر المعبد بأربع مراحل خلال تاريخه الطويل الذي يعود إلى ما قبل القرن العاشر قبل الميلاد،[18] ولم يتبقَ على ما يدل على المعبد الأول إلا جزء من جدار طوله متر بارتفاع نصف متر تحت المنصة وقد تم دفنه وهو يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد[فوكت، بوركهارد، 1999].

وأقيم المعبد الثاني على أنقاض المعبد الأول، وكان عبارة عن مبنى مستطيل الشكل وله ساحة متوسطة محاطة بصف من الغرف الصغيرة عددها خمس في الطرف الشرقي ورواقين في الشمال والجنوب. وقد شيدت من حجارة قطعت من صخر بركاني بارتفاع ثلاثة أمتار، وهي تختلف قليلاً في اتجاهها عن المعبد الثالث الذي قام على أنقاضها. وكانت إحدى الغرف مليسه بالطين وهناك آثار رسم هندسي ملون باللونين الأصفر والأحمر. ويبدو أن المعبد الثاني قد زين بزخارف هندسية معمارية نحتت من أحجار كلسية أعيد استخدامها بما في ذلك الأفاريز. ويعود إنشاؤه إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد وظل قائمًا حتى الربع الأخير من القرن التاسع قبل الميلاد.

وفوق المعبد الثاني تقع بقايا المعبد الثالث وهي منشأة ضخمة متعددة الغرف، وشيد جدار المنصة بحجارة ضخمة وموقصه من الحجر البركاني الأسود (أحجار البلق) ، وتم ردم أرضية المنصة بتراب رسوبي ناعم وأقيمت في الوسط غرفة للعبادة تحيط بها أرضية مبلطة بأحجار البلق. ويعود إنشاؤه إلى القرن الثامن قبل الميلاد [فوكت، بوركهارد، 2000].

وفي أواخر القرن السادس وبداية القرن الخامس قبل الميلاد شيد المعبد الرابع على أنقاض المساكن السابقة وجرى توسيعه بإضافة فناء فسيح فأصبح بذلك مجمعًا فخمًا يستوعب إقامة الاحتفالات للإله السبئي (المقه) [فوكت، بوركهارد، 2000] وهذا المعبد هو الذي سوف نتناوله بالدراسة والتحليل في هذه الدراسة.

– الوصف المعماري للمعبد

الوصف المعماري للمعبد الرابع الذي وجدت آثاره واضحة بشكل كبير وهي عبارة عن منصة مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب (23.25 متر) وعرضها من الشمال إلى الجنوب (17.82 متر) ترتفع عن الفناء بمقدار (3 أمتار)، شيدت على أساس واسع ووطيد من الحجر البركاني الأسود بحيث يتراكب مع البنى الفوقية للمساكن الثلاثة الأولى، وشيدت المنصة من الحجر الجيري المشذب.

يظهر البناء من الخارج متدرجًا ومكونًا من مستويين السفلي مكون من أربعة مداميك والعلوي حجارته مشذبة يبدأ من المدماك الخامس، ويرتد البناء إلى الداخل بمقدار (10 سم) من المدماك السادس[فوكت، بوركهارد، 1999].

صورة رقم (4) : صورة لأعمدة منصة معبد برآن
[عن Luraghi E., Yemen, la porta dell'Oriente, 1998]

يصعد إلى المنصة من منتصف المصطبة بواسطة سلم شديد الانحدار مشيد من الحجارة يبلغ عرضه (4.70متر) ومكون من ثمانية عشر درجة سمك كل منها(20 سم) شيد على جانبيه جداران حاجزان من الحجر الجيري بشكل متدرج على ثلاثة درجات بما يتناسب والانحدار الشديد لدرج السلم أقيم عليها ثلاثة تماثيل برونزية لم يبقَ منها سوى بصمات أقدامها[محمد، منير عبدالجليل, 1995]. وأمام المنصة توجد ستة أعمدة من الحجر الجيري مقطعها على شكل مستطيل (كل عمود عبارة عن حجر واحد) ارتفاع العمود (8.30 متر) ومتوسط طول المقطع (87سم) ومتوسط العرض(62سم)ومتوسط المسافة التي تفصل بين الأعمدة(63سم) نحت في أعلى كل عمود تاج مزخرف بمسننات معمارية على شكل إفريز مكون من ثلاثة حقول مسننة تدور حول التاج، في الصف العلوي ثلاث مسننات مربعة الشكل، وفي الصف الأوسط أربح مسننات مربعة، أما في الصف السفلي فتوجد ثلاث مسننات مربعة الشكل، ويبلغ ارتفاع التاج (87سم) من أصل العمود نفسه[محمد، منير عبدالجليل, 1995] [الصورة رقم(4)]. أن ارتفاع الأعمدة الحجرية الستة الذي يبلغ 8.3 متر يجعل منها أعلى الأعمدة في كل أرجاء جنوب الجزيرة العربية، وهي تنتصب بفعل كتلتها ذاتها منحنية قليلا نحو المعبد ومتناقصة من القمة إلى القاعدة شأن كل أعمدة المعبد[فوكت، بوركهارد، 1999]. ومن خلال أبعاد العمود (الطول والعرض) نجد أن النسبة بينهما (1.403%) وقد تصل إلى (1.5%) في بعض الأعمدة وهذه النسبة متوافقة هندسياً من الناحية الإنشائية التي تم التوصل إليها عبر النظريات العلمية الحديثة.

وعلى قمة العمود يوجد لسان بارز (Tenon) من أصل العمود متوسط طوله(16سم) وعرضه (14 سم) وارتفاعه(7 سم) ليكون ذكرًا ليثبت العتبة التي تعلوه والتي يكون فيها ثقبًا (Mortise) حجمه مساوي ومطابق حجم الذكر في رأس العمود. وهذه الطريقة تدل على مهارة خاصة في البناء اليمني القديم. ويرتكز العمود على قاعدة حجرية مستطيلة الشكل منفصلة عن قاعدة العمود الآخر يبلغ طولها (3.2 متر) وعرضها (81 سم) وسمكها (58 سم) [محمد، منير عبدالجليل، 1995] وهذا النمط من الأساسات يعرف حديثاً بالأساسات المنفصلة (Isolated Footing) يتم الدخول إلى بيت العبادة من بين صفي الأعمدة التي تكون بوابة ذات ثلاثة مداخل وخلف البوابة يوجد بيت العبادة وهو مستطيل الشكل مرصوف بحجارة جيرية وتوجد داخله بقايا أعمدة كانت تشكل أروقة، وفي الوسط يوجد بناء مستطيل مكون من مدماكين يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب (6.43 متر) وعرضه من الشمال إلى الجنوب (4.33 متر) وفي وسطه بلاطتان كبيرتان فيهما ثقوب دائرية بقطر(20 سم)وعمق (3 سم) ويرجح أن تلك الحفر عبارة عن قواعد تمثال حيواني من البرونز رمز للإله الذي شيد له المعبد[محمد، منير عبدالجليل، 1995].

وأمام المصطبة يمتد فناء أمامي مستطيل الشكل ذو أعمدة يحيط بالمعبد طوله من الشمال إلى الجنوب(37متر) وعرضه من الشرق إلى الغرب (32.35 متر) تقوم على جدرانه الشمالي والجنوبي والغربي أروقة بعرض متوسط (2.50 متر) تحيط بساحة مكشوفة، وتوجد في كل من الجدارين الشمالي والجنوبي بوابتان متقابلتان يبلغ عرضهما (2.00متر و 1.85متر على التوالي) وتوجد في منتصف الجدار الغربي بوابة ثالثة عرضها (متران)، ويتوسط المعبد الجدار الشرقي للفناء [20]، أعيد فيه هو الآخر استخدام عناصر معمارية يعود بعضها إلى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد ، ويبدو أن المعبد يعود إلى أحد أهم أنماط فن العمارة اليمنية القديمة عرف من قبل في القصر الملكي في شبوه والمعبد الكبير في تمنع[فوكت، بوركهارد، 2000]

ويحيط بالمبنى سور من اللبن مبتدءًا من الجهة الغربية مارًا بالجهة الشمالية منتهيًا بالجدار الشمالي للمعبد يبلغ عرضة (3 أمتار) أقيمت عليه أربعة أبراج مشيدة من الحجارة المشذبة يقع الأول في الركن الجنوبي الغربي من السور، والثاني في منتصف الجدار الغربي، والثالث في الركن الشمالي الغربي، أما الرابع فيقع في منتصف الجدار الشمالي. ويتم النزول إلى الفناء من قمة السور بواسطة سلم مشيد من الحجارة في الركن الشمالي الغربي في الساحة الموجودة بين جدار السور وجدار الفناء. ومنها يتم الدخول إلى الفناء عبر إحدى البوابات الثلاث.

الخلاصة:

إن العمارة اليمنية القديمة قد أخذت مكانها بين عمارة الحضارات التي عاصرتها وكان لها من العناصر والمقومات التي تجعلها من الحضارات المبدعة في العالم القديم، وإن تأخر اكتشافها والتعرف على مميزاتها لا يلغي وجودها.

وان تدفق البعثات العلمية الأجنبية يدل دلالة واضحة على أهمية هذه الحضارة في العالم القديم وهذا ما أكدته المكتشفات الأثرية التي استخدمت فيها الأجهزة الحديثة في كشف المواقع الأثرية وتحديد عمرها الزمني والتي من خلالها تم التمكن من سد الفجوات في تاريخ اليمن القديم.

وقد تركزت أهم مقومات عمارة الحضارة اليمنية القديمة في الآتي:

أ. **أسوار المدن:** وهي عبارة عن جدران حجرية تحيط بالمستوطنات البشرية، شيدت أساساتها من كتل حجرية ضخمة لتمكنها من تحمل الأسوار ذات الجدران العالية المشيدة من كُتل الحجارة ذات الحجم المتوسط مصفوفة أفقياً بمسار متغير من حيث النسق التخطيطي للسور وأجزائه البارزة والداخلة والمسافات البينية المنتظمة فيما بينها. وقد وجد هذا النوع من الأسوار في الكثير من المدن اليمنية القديمة وأهمها مدينة يلا الدريب التي تعود إلى العصر البرونزي، ومدن معين، البيضاء، براقش، تمنع، شبوه ومارب من عصر الممالك. وتعتبر هذه التقنية خاصية متميزة ومهمة في هندسة العمارة اليمنية القديمة من الناحية الإنشائية حيث وجد أنها تقوم بتحمُّل وتوزيع القوى رأسياً وأفقياً وتحميه من السقوط.

ب. المساكن الحجرية العالية ذات الطوابق المتعددة المكتشفة في مناطق المرتفعات والتي شيدت أساساتها من كتل حجرية كبيرة تعلوها جدران من أحجار متوسطة الحجم تسندها أحجار صغيرة دون استخدام أي نوع من أنواع المواد الرابطة مثل الملاط وأحياناً مترابطة ببعضها البعض بملاط من الطين.

ج. إن الأعمدة الحجرية التي وجدت في كثير من المساكن في اليمن القديم وخاصة في المعابد والقصور تميزت بصفة خاصة بها، حيث نجد إن العمود ينحت من صخرة واحدة بارتفاعه الكامل الذي يصل إلى 8.3متر، وتنتصب هذه الأعمدة بفعل كتلتها الذاتية (Dead Load). ومن خلال دراسة أبعاد

العمود (الطول والعرض) وجد أن النسبة بينهما تصل إلى (1.5%) تقريباًَ وهذه النسبة متوافقة هندسياً من الناحية الإنشائية مع ما تم التوصل إليها عبر النظريات العلمية الحديثة مما يدل على الذكاء الفطري الذي تمتع به اليمنيون القدماء.

د. واجهات الجدران المشذبة تعتبر تقنية متطورة تميزت بها العمارة اليمنية القديمة، حيث ظهرت كُتل الأحجار بمقاسات هندسية متناسقة إلى حد ما وتأخذ شكلاً مربعاً أو مستطيلاً، وقد انتشرت هذه التقنية في كافة أنحاء مدن اليمن الرئيسية منذ القرن الثامن – السابع قبل الميلاد.

هـ. من مميزات الحضارة اليمنية القديمة تفاعلها مع البيئة المحيطة بشكل كبير، حيث نجد الأسوار والمساكن والمعابد التي شيدت في المناطق الجبلية أو المناطق السهلية قد استخدمت مواد بناء متوفرة في البيئة المحيطة بها.

فقد تم البحث وجمع كل ما أمكن الحصول عليه من معلومات وما توصلنا إليه من نتائج، والتي نرجو أن تكون بداية الطريق للمهندسين والآثاريين اليمنيين للخوض في هذا المجال وأغناؤه بالمزيد من الدراسات.

المراجع:

1. الجرو، اسمهان سعيد، 1996 موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن القديم)، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، الأردن–أربد، ، ص 88
2. قسطنطيني، لورينزو،1990 الزراعة والعلاقة البيئية – البشرية لمجتمعات ما قبيل التاريخ في المرتفعات اليمنية الوسطى، حضارة العصر البرونزي في خولان الطيال والحدا(الجمهورية اليمنية)، المعهد الإيطالي لدراسات الشرقين الأوسط والأقصى – مركز الحفريات والدراسات الآثارية، اسيميو – روما، ص 134
3. اينيزان، ماري – لويزا،1999 الإنسان الأول في جزيرة العرب، اليمن في بلاد مملكة سبأ، معهد العالم العربي، دمشق، ص 22
4. ايدينز، كريستوفر و ويلكنسون ت. ج. ،2001 جنوب شبة الجزيرة العربية في العصر الجيولوجي الحديث (الهولوسين): الاكتشافات الأثرية الأخيرة، دراسات في الآثار اليمنية، ترجمة ياسين محمود الخالصي المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية، ص 1.
5. ديمجرية، أليساندرو،1990 حضارة العصر البرونزي في خولان الطيال والحدا(الجمهورية اليمنية)، مركز الحفريات والدراسات الآثارية، اسيميو – روما، ص 137.
6. ويلكنسون، ت. ج. ، ايدينز، كريستوفر وجيبسن، م،2001 آثار المرتفعات اليمنية تسلسل زمني تمهيدي، دراسات في الآثار اليمنية، المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية، ص 134
7. ديمجرية، أليساندرو وروبان، كريستيان،1999 التنقيبات الإيطالية في يلا (اليمن الشمالي سابقا): معطيات جديدة حول التسلسل الزمني للحضارة العربية الجنوبية قبل الإسلام، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية، معهد البحوث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي، صنعاء، إكس – إن – بروفانس، ص 35.
8. ديمجرية، أليساندرو،1988 النقش الثامن (إ / 48) من نقوش منطقة يلا، المجموعة المعمارية الأثرية السبئية في وادي يلا (خولان الطيال، الجمهورية العربية اليمنية) تقرير أولي، اسيميو، روما، ص 62.

9. عبدالله، يوسف محمد،1992 مارب، الموسوعة اليمنية 2، مؤسسة العفيف الثقافية–صنعاء، دار الفكر المعاصر، لبنان–بيروت، ص806
10. بافقيه، محمد عبدالقادر، بيستون، الفريد، روبان، كريستيان و الغول، محمد،1985 مختارات من النقوش اليمنية القديمة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ص 133
11. الارياني، مطهر علي،1985 نقوش مسندية وتعليقات، مركز الدراسات والبحوث اليمني، الطبعة الثانية، 1990، ص70، ص124؛ وللمزيد النقش (RES 3910)، بافقيه، وآخرون، ص166 ؛ والنقوش CIH 19, CIH 389, RES3197, RES 3910, Ja 557.
12. عبدالله، يوسف محمد،1990 حديث في حضارة سبأ، أوراق في تاريخ اليمن وآثاره – بحوث ومقالات، دار الفكر المعاصر، بيروت–لبنان، ص198– 211
13. أيشمان، ريكاردو و هتجن، هولجر،2003 مارب عاصمة مملكة سبأ، 25 عاماً حفريات وأبحاث في اليمن 1978 – 2003 ، المعهد الألماني قسم الشرق مكتب صنعاء، ص23 – 24
14. فخري، أحمد، 1988، رحلة أثرية إلى اليمن، وزارة الأعلام والثقافة، الجمهورية العربية اليمنية، 1988، ص 116، ص 213
15. فوكت، بوركهارد و هربرج، فيرنر، و رورينج، نيكول،2000 "عرش بلقيس" معبد المقه برآن في مارب، صنعاء، ص 2
16. فوكت، بوركهارد، 1999، معابد مارب بران (عرش بلقيس كما يسمى الآن)، اليمن في بلاد مملكة سبأ، معهد العالم العربي، ص 140
17. محمد، منير عبدالجليل عبده،1995 بيوت المعبودات في مملكة سبأ أشكالها وتخطيطها، رسالة ماجستير، غير منشورة ، جامعة اليرموك، ص90 – 106
18. de Maigret, A., 1988. The Sabean Archaeological Complex in the Wadi Yala (Eastern Hawlan at – Tiyal, Yemen Arab Republic), Archaeological Survey in the Wadi Yala Antiquities, ISMEO Reports and Memoirs, XXI, Roma, p13.
19. Fedele, F. G., 1988. North Yemen: The Neolithic, Yemen 3000 Years of Art Civilisation in Arabia Felix, Staatliches Museum Fuer Voelkerkunde Muenchen, p. 36
20. Tosi, M., 1986. Archaeological activities in the Yemen Arab Republic 1986: Neolithic and protohistoric cultures, Survey and excavation on the coastal plain (Tihama), East and West, Vol. 36, pp. 400- 415.